

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

تعميقُ الحوار حول آية الرتق

إن ظهور آية الرتق: أولم ير الذين كفروا أن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وجعلنا من الماء كل شيء حيٍّ، أفلا يؤمنون. يدعمُ القاعدةَ الرئيسيَّةَ الفلسفيَّةَ: أن بسيطَ الحقيقة هو كلُّ الأشياء. و أما وجه الترابط ما بين الآية و القاعدة فقد نَقَحَ الأسفارُ بأن الرتق هو الانسدادُ بحيث ينضمّ و يندمجُ بعضُهُ إلى بعضه الآخر، و لهذا فإنَّ الشيءَ الأوليَّ المكنون في الذات الإلهيَّ كان مُنْسَدًّا في ذاتِ الله ثم انفتَقَ و انشقَّ من وجود الباري تعالى فاكْتَسَبَ وجوداً مادياً دنيوياً.

إذن فالآية لا تتلخَّص في الماديات بل تُعَمِّمُ المجرّدات المرموزة، و ذلك نظراً إلى تعبيرها الكُنائيِّ بحيث أرادت أن تُشيرَ من خلال كلمة "السماوات و الأرض" إلى مُطلق الوجود الذي قد غطى كافة الوجودات العالميَّة المُتَنَاطِرة من المجرّدات و الماديات.

مُلاحظاتان تجاه صاحب الميزان

1. لقد ترجمَ صاحبُ الميزان لفظة "الرتق" بمعنى التصاق السماوات مع الأرضين ثم انفتقت و تفتّحت، و هذا يدلّ بأنهما آنذاك كانتا شيئاً واحداً ثم انفصلتا، إلا أن هذه الترجمة تُضادُّ ظاهر الآية و الرواية و خلاف الرواية الواردة ضمن الكافي عن الباقر عليه السلام:

أنه سئل عن هذه الآية فقال عليه السلام: فلعلك تزعم أنهما كانتا رتقاً مُلتزمتان مُلتصقتان ففتّقت إحداهما من الأخرى، فقال نعم، فقال عليه السلام: استغفر ربك فإن قول الله عزّ و جلّ: كَانَتَا رَتْقًا، كانت السَّمَاءُ رَتْقًا لا تُنْزِلُ المَطَرُ و كانت الأرض رَتْقًا (منضمّةً بنفسها) لا تُنبِتُ الحَبَّ فلمّا خلق الله الخلق و بثّ فيها من كلّ دابةً ففكّ السَّمَاءَ بالمطر و الأرض بنبات الحبّ.

فسيراً مع تفسير الرواية المذكورة، قد صرّحت اللغات بأن الرتق يعني المُنْسَدُ المُجْتَمِعُ بنفسه، لا الانضمام بشيء آخر، و لهذا فينحلُّ الرتق لكل واحد أي قد رتقَ سبحانه السماء رتقاً و رتق الأرض رتقاً لأنهما كانتا مُنْسَدَتَيْنِ و منضمّتين في وجود الله تعالى ثم تجزّئت عن الوجود البسيط و تركّبت تناسباً مع عالم الدنيا، نظير قولك: كان زيدٌ و عمروٌ أديباً، أي كلّ واحدٍ منهما يُعدُّ أديباً.

2. و الخطأ التالي الصادر من صاحب الميزان هو أنه قد زعمَ قائلًا: إن الآية توّد الإجابة على مُعتقد الكفّار الوثنيين بأن الله هو الخالق و لكنّ التدبير بيد الأصنام، بينما قد أجابهم الله تعالى بأن الخلقة تُلازم التدبير، فلا يَنفَكَانِ، و لهذا قد خلقهم و أوجدهم بالرتق ثم فتّقهم بالتدبير، و إليك نصُّ عبارته:

المراد بالذين كفروا- بمقتضى السياق- هم الوثنيون حيث يفرقون بين الخلق و التدبير بنسبة الخلق إلى الله سبحانه و التدبير إلى الآلهة من دونه و قد بين خطأهم في هذه التفرقة بعطف نظرهم إلى ما لا يرتاب فيه من فتق السماوات و الأرض بعد رتقهما فإن في ذلك خلقاً غير منك عن التدبير، فكيف يمكن قيام خلقهما بواحد و قيام تدبيرهما بآخرين.[1]

إلا أن تفسيره يُضادّ ظاهر الآية القائلة بأن كل واحدة من السماوات والأرض قبل الخلقة كانت رتقاً ثم فتقهما فأصبحتا حادّتين ذاتاً فعالية، فلم يُطرح موضوع التدبير ضمن الآية بل المتبادر من مجموع الآية هي مسألة الخلقة والإيجاد من خلال تعبيره تعالى: بالرتق والفتق، فإنهما من نمط الخلقة لا من نمط التدبير والتنظيم.

العود إلى عينية الصفات مع الذات

وانطلاقاً من قاعدة: إن بسيط الحقيقة هو كل الأشياء. نقول بأن الله كله الوجود بل هو كل حقائق الوجودات أيضاً ولكن لا حدودها الظاهري وناقصها وشوائبها، بل هو تعالى يُعدّ مبدءاً لحقائقها، وأما تلك النواقص والحدود فهي من مُطلّبات هذه الحياة الدنيّة الماديّة، ذات الأجزاء والتركيب، وليس كذلك حقيقتها، ولهذا نحن قد ركّزنا الأذهان إلى ما قبل خلقة الماديّات بحيث كان وجودها رتقاً ومندرجاً آنذاك ضمن وجود الله تعالى؛ فبالتالي لا ضير لكي نعتقد بأن وجود الله تعالى قد احتوى على حقائقها الوجوديّة النوريّة المقتبسة من أصل وجود الله النوريّ.

وقد استدل الأسفار على عينية الصفات الذاتية مع الذات الإلهي، قائلاً:

الأول أن هذه الصفات الكمالية كالعلم والقدرة وغيرهما لو كانت زائدة على وجود ذاته لم يكن ذاته في مرتبة وجود ذاته مصداقاً لصدق هذه الصفات الكمالية فيكون ذاته بنفس ذاته عارية عن معاني هذه النعوت فلم يكن مثلاً في حد ذاته عالماً بالأشياء قادراً على ما يشاء والتالي باطل لأن ذاته مبدءاً كل الخيرات والكمالات فكيف يكون ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره فيكون للغير فيه تأثير فيكون منفعلاً من غيره وإنه فاعل لما سواه فيلزم تعدد جهتي الفعل والانفعال وهو محال فكذا المقدم وأما لوازم الماهيات فهي ليست أموراً كمالية حتى يلزم من لزومها للماهية – أن يستفيد الماهية منها كمالات فيلزم الإفادة والاستفادة الموجبتان لتكثير الجهتين في الذات الواحدة بل هي أمور اعتبارية من توابع الماهية.[2]

استعراض الأسفار لمقالة أمير المؤمنين (عليه السلام)

وقد وقع في كلام مولانا وإمامنا مولى العارفين وإمام الموحدين ما يدل على نفي زيادة الصفات لله تعالى بأبلغ وجه وأكدته حيث قال في خطبة من خطبه المشهورة -: أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة – فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده ومن حده فقد عده ومن قال فيم فقد ضمنه ومن قال على م فقد أخلى منه انتهى كلامه المقدس على نبينا وعليه وآله السلام والإكرام.

وهذا الكلام الشريف مع وجازته (و ملخص) متضمن لأكثر المسائل الإلهية ببراينها – ونشر إلى نبذ من بيان أسرارها وأنموذج من كنوز أنوارها.[3]

[1] الميزان في تفسير القرآن، ج14، ص: 278.

[2] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم – إيران، مكتبة المصطفوي، جلد: 6، صفحہ: ۱۳۳.

[3] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم – إيران، مكتبة المصطفوي، جلد: 6، صفحہ: ۱۳۵.